ولنأخذ الآن فى عرض يسير للإطار العام للبحث البلاغى الذى دار حوله النزاع الغامض أول الأمر ، هذا الإطار هو المقام أو الحال . من الشراح من فرق بين الحال والمقام ، ومنهم من زعم أن الحال والمقام سواء لا يفترقان . قالوا إن الحال أمر يدعو المتكلم إلى ملاحظة خصوصية ما . وهذه عبارة أساسية فما الخصوصيات المقصودة ؟ لنقل فى هذا العرض الموجز إن الحال أو المقام قد يكون من قبيل تردد المخاطب أو إنكاره ، هذا التردد يحتاج إلى خصوصية معينة فى استعمال بعض الأساليب دون بعض . وقد يقال إن البلاغة فى نظامها العام جملة تفصيلات معقدة وغير معقدة تدور حول هذه الفكرة . واجتمع للباحثين كما نعرف قدر هائل من الخصوصيات سميت بأسماء مختلفة ، مثل التقديم والتأخير ، والتنكير والتعريف ، والإطلاق والتقييد ، والحذف والذكر ، والفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب . وكانت السمة العامة للبحث ـ فى الحقيقة ـ هى العناية بدقائق العبارة المفردة ، أو هى النظرة المجهرية التى لقيت شيئاً من السخرية غامضاً أول الأمر .

إن ظاهر البلاغة يصعب مقاومته ، وأى امرىء يستطيع فى اللحظة الأولى أن يقاوم مبدأ التدقيق والبحث عن التفصيلات ؟ كانت البلاغة المثيرة للجدل ترى أن بحث الحال أو المقام يجب أن يمتد ليشمل أمور التعقيد فى بناء الألفاظ وتكوين الأفكار ، ويشمل ـ إلى جانب ذلك ـ أمور الاختلاف فى الدلالة على معنى من المعانى . وليس من شك فى أن لدينا فى هذا الباب تراثاً واسعاً يجب ألا يقضى فيه بجرة قلم ، ويجب أن نحترز دائماً من التعميم والإجمال . ويجب أن نلاحظ أن مايراه جيل غير ملائم قد تتغير النظرة إليه فى جيل ثان . ومن الواضح مع ذلك أن الثقافة الأدبية بوجه عام منذ مطلع هذا القرن بدأت تفقد عنايتها بهذه النظرة المجهرية أياً كانت طبيعتها ، وهذا يعتبر أحد الأسباب الرئيسية فى زعمنا التى أدت إلى مواجهة البلاغة فيما يشبه التحدى .

لقد تساءل الثائرون عن طبيعة النسق العام للتفكير البلاغى المتداول فى البيئات الرسمية . والعناية بهذا النسق تعبير واضح عن القلق الاجتماعى الذى يجب الإشارة إليه . وكان التساؤل ـ فى الثقافة الأدبية ـ عن أهداف المجتمع أو الحياة بارزاً ، وبدا أن الجميع مشغولون بقضايا كلية كبرى ، وبدا أن الوقوف عند صلاحية المواقف الجزئية والنظرة المجهرية لا يستجيب لهذا القلق . ومهما يكن فقد وجدنا من مظاهر الجرأة الفكرية شيئاً غير قليل يجب أن يقدر فى حياد أو فى ظل البواعث المهمة التى